الدرس 12. دولة بني نصر بالأندلس

تعد دولة بني نصر أو بني الأحمر او مملكة غرناطة اخر معقل للمسلمين في الاندلس بعد سقوط دولة الموحدين واسترجاع النصارى لمعظم المدن الاندلسية، قامت هذه الدولة في الجنوب بقيادة محمد بن يوسف بت نصر، وتنتسب هذه الدولة الى مؤسسها محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن نصر بن قيس الخزرجي، الذي يرجع في نسبه الى سعد بن عبادة الانصاري أحد كبار الصحابة، [1] وهو الذي يقول عنه ابن الخطيب ان "كان آية في السذاجة والسلامة، عظيم التجلد رافضا للدعة والراحة، مؤثرا التقشف بعيدا عن التصنع شديد الحزم فضا في طلب حقه مباشرا للحرب بنفسه"[2] وقد تلقب بالغالب بالله.

1. **تأسيس الدولة** : بعد ضعف الدولة الموحدية تجددت الاضطرابات و الثورات والانقسام حيث ظهر بنو مردنيش في بلنسية و بنو هود في مرسية وتمكن هؤلاء من السيطرة على الأندلس ،في هذا الوقت ظهر محمد بن الأحمر الذي تسلم إمارة أرجونة سنة 629 هـ1232هـ ثم دخلت مدينتا وادي آش وجيان في طاعته 633 هـ1233م، وبعدها عقد معاهدة سلام مع مملكة قشتالة لمدة عشرين سنة استغلها في تثبيت دعائم دولته و تحصينها من الأعداء،[3] وفي سنة 634 هـ 1237 م ثار أهل غرناطة ضد بني هود و أعلنوا طاعتهم لبني الأحمر الذي دخل غرناطة وجعلها حاضرته ومقر حكمه ،ولما قتل ابن هود في ألمرية في ظروف غامضة بعد مؤامرة حيكت له من قبل والي المدينة سنة 635 هـ1238 م.

---

[1] - ابن خلدون، العبر ج4 ص 218. محمود مقيدش، نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والاخبار، ج1، تح علي الزاوي محمد محفوظ، دار الغرب الإسلامي بيروت 1988م ص537.

2 ـ ابن الخطيب، اللمحة البدرية في الدولة النصرية، تح محي الدين الخطيب، المطبعة السلفية القاهرة ص 12.

3 ـ ابن الخطيب، المصدر نفسه ص 36.

BROUILLON

اغتنم محمد بن يوسف هذه الاضطرابات ودخل المدينة، ثم أعلنت مالقة ولاءها لبني نصر 636هـ 1239 م وهكذا ارتسمت حدود مملكة غرناطة التي جمعت أشلاء الأندلس المنهارة، هذه المملكة التي امتدت من جيان وبياسة حتى البحر وشرقا حتى المرية وغربا حتى الوادي الكبير.[1]

وقد كانت هذه الدولة تشتمل على ثلاث ولايات كبرى، ولاية غرناطة في الوسط وممتدة جنوبا حتى البحر وأهم مدنها غرناطة ووادي آش وبسطة ثم ولاية ألمرية التي تمتد من مرسية حتى البحر واهم مدنها ألمرية وبيرة والمنصورة، اما ولاية مالقة التي تقع غرب غرناطة فأهم مدنها مالقة وبلش وقمارش ورندة ويلحق بها منطقة جبل طارق والجزيرة الخضراء وطريف،[2] وبعد ان تمكن محمد بن يوسف من بناء أسس الدولة القوية عقد البيعة لابنه محمد الثاني وفي سنة 671هـ 1272م توفي السلطان محمد بن يوسف ودفن بجوار قصره.[3]

لقد استمرت هذه المملكة أكثر من قرنين من الزمن والتي شهدت الفصول الأخيرة من الوجود العربي في إسبانيا، وهناك عوامل كثيرة ساعدت هذه المملكة على الصمود منها، الموقع الجغرافي في الزاوية الجنوبية لشبه الجزيرة الأندلسية وقربها من بلاد المغرب، وكذلك ظهور دولة بني مرين في المغرب

الأقصى والمساعدات الكبيرة التي قدمها سلاطين بني مرين لنصرة اخوانهم في الأندلس[4]، ومن العوامل هجرة المسلمين الاندلسيين من مدنهم الى غرناطة فكثر أهل المهارات في شتى الميادين

1- يوسف شكري فرحات، غرناطة في ظل بني الأحمر، ط1، دار الجبل بيروت 1993 ص9.

2 ـ عبد الله عنان، دولة القسم الأول، المرجع السابق ص56.

3 ـ المقري، نفح الطيب، ج1 المصدر السابق ص449.

4 ـ ابن الأحمر ابو الوليد، روضة النسرين في دولة بني مرين، تح عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية الرباط 1962 م ص17

العسكرية والاقتصادية والدينية والسياسية فأضافت قوى أخرى الى غرناطة، اضافة الى حب الجهاد في سبيل الله والذي كان له الأثر البارز في الصمود والتصدي، كما ان براعة حكام غرناطة واستفادتهم من الصراع بين الممالك النصرانية قد زاد في استمرار هذه المملكة.

3 سلاطين **بني نصر**: بعد وفاة محمد الأول مؤسس الدولة سنة 671هـ 1273م خلفه ابنه محمد الثاني الملقب بالفقيه لغزارة علمه وتقواه، والذي سعى منذ البداية الى الارتباط بروابط الصداقة والتعاون مع بني مرين، وتمكن من القضاء على الفتن بفضل ما تميز به من الدهاء والصبر والحزم[1].

لقد سار محمد الثاني على سنن والده من مصانعة الأقوياء ومداراة الأعداء، فقد تحالف مع المرنيين ثم مع النصارى ومع الزيانين أعداء المرنين وتمكن بهذه السياسة من الحفاظ على مملكته التي شهدت في عهده ازدهارا اقتصاديا وعمرانيا حيث نظم الدواوين والجباية وشجع العلماء والأدباء والأطباء، وقد توفي محمد الفقيه في شعبان 701هـ 1302 م بعدما حكم تسعا وعشرين سنة، وخلفه ابنه محمد الثالث اللقب بالمخلوع ومن اهم اعماله بناء مسجد الحمراء وشهد عصره ازدهار صناعة السفن وتشكلت قوة بحرية تحكمت في مضيق جبل طارق،[2] وبسبب سياسته الخارجية خاصة مع بني مرين اضطر الى التنازل عن الحكم لأخيه أبي الجيوش نصر الذي تميز عهده بمحاربة الثائرين على حكمه في الداخل و الخارج خاصة عندما تحالف ملك قشتالة وأرغون ضد غرناطة وفي سنة 712هـ 1312 م انتقل الحكم الى أبي الوليد اسماعيل خامس ملوك بني نصر الذي كان عفيف النفس و اجتهد في الدفاع عن مملكته كما حارب البدع و الخرافات ،وكان قليل التطرق الى أمور الدين له قول مشهور في اصول الدين حيث قال " أصول الدين عندي قول هو الله أحد (السورة) وهذا " واشار الى سيفه[3]

---

1 ـ ابن خلدون، العبر ج4 ص220

2 ـ ابن الخطيب، المصدر السابق، ص 45.

3 ـ ابن الخطيب، اللمحة البدرية، نفسه، ص 71

لقد شهد عصر هذا السلطان عدة أحداث أبرزها حربه مع مملكة قشتالة 716 هـ1316 م وقد حقق انتصارات عديدة بسبب حنكة شيخ الغزاة عثمان بن ابي العلاء، وفي سنة 725 هـ1325 م قتل أبو الوليد على يد ابن عمه محمد بن إسماعيل بسبب خلاف حول جارية ظفر بها في إحدى المعارك، ثم خلفه محمد الربع بن إسماعيل الذي كان فارسا شجاعا حتى التهور وكان يحب الأدب ويرتاح للشعر وقد ثبّت ابو العلاء في قيادة الجيش رغم خلافه مع وزيره محمد بن أحمد المحروق،[1]

وقد تعرضت المملكة في عهده الى غزو ألفونسو الحادي عشر ملك قشتالة فاستنجد محمد الرابع بملوك المغرب فأمده أبو سعيد المريني بجيش ضخم ابعد به النصارى، اما نهايته فكانت على يد أحد الجنود المغاربة عندما كان عائدا من حملته على جبل طارق سنة 733هـ 1333 م[2].

لقد تميز الوضع في الأندلس بعد ذلك بالضعف وظهور الفتن الداخلية واشتداد الخطر النصراني ويعود هذا الوضع الى ضعف الحكام وعدم اهتمامهم بالأمور الاساسية، ومن مظاهر ذلك الضعف والفوضى أن معظم السلاطين كانت نهايتهم إما القتل أو الخلع، كما تميز الوضع بصفة عامة إما بالتحالف مع النصارى أو الاستنجاد بالمرنيين.

4 نهاية دولة بني نصر: لقد تميزت المراحل الاخيرة من عمر الدولة بالضعف والتراجع وكثرة المؤمرات التي كانت تنتهي في اغلب الأحيان بقتل الحكام أو عزلهم، وفي عهد أبي الحسن علي 866 هـ1463 م انقسمت غرناطة الى دولتين، أبو الحسن في غرناطة والزعل أبو عبد الله في مالقة والذي كان يتلقى المساعدة من ملك قشتالة.[3]

---

1 ـ ابن الخطيب، الاحاطة ج1 ص535.

2 ـ ابن الخطيب، اللمحة ص 83.

3 ـ المقري، النفح ج4 المصدر السابق ص522.

وما ميز هذا العهد ايضا تأثير حريم السلطان على الأوضاع السياسية ومن ذلك ظهور صراع صريح بين زوجة ابي الحسن العربية عائشة الحرةوزوجته الإسبانية حيث سعت كل واحدة الى إسناد الحكم لابنها، هذه الصراعات وتحالف بعض الحكام مع النصارى أدى الى ضعف الدولة وسقوط معظم المدن الأندلسية في يد الإسبان ولم يبق الا غرناطة، وفي هذه الأثناء طلب الإسبان من السلطان أبي عبد الله تسليم المدينة وفق شروط معينة الا أنه رفض فقام فرديناند بحصار المدينة لمدة سبعة أشهر أفشل فيها المسلمون عدة محاولات لاقتحام المدينة،[1]وعندما عم اليأس وانتشر الجوع و المرض بعد أن قلت المؤن بسبب انعدام وصول الإمدادات من خارج المدينة بسبب الحصار ، وأمام هذه الأوضاع اتفق أعيان المدينة على تسليمها الى النصارى الا القائد موسى ابن ابي غسان فإنه رفض وقال قوله المشهور " أتركوا العويل للنساء و الأطفال ،فنحن رجال لنا قلوب لم تخلق لإرسال الدمع ،ولكن لتقطر الدماء ..."[2]

وفي الخامس والعشرين من شهر نوفمبر سنة 897هـ 1491 م وبعد مفاوضات شاقة تم توقيع معاهدة التسليم والتي تضمنت عدة شروط منها، إطلاق سراح الأسرى المسلمين وتأمين المسلمين على أنفسهم وأموالهم واحتفاظهم بشريعتهم وقضائهم وتأمين حرية الدين والشعائر والحفاظ على المساجد والسماح لمن اراد أن يغادر من المسلمين الى المغرب في سفن ملك النصارى لمدة ثلاث سنوات، كما يمنع على النصارى دخول المساجد، ومنح المسلمين حق التقاضي وفق الشريعة الإسلامية.[3]

وهكذا فتحت المدينة ابوابها 898هـ 1492 م ودخلها الملك فرديناند والملكة إزبيلا، ورفع النصارى فوق برج الحمراء صليبا فضيا وبدأ فصل جديد من المعاناة ونكث العهود، وخرق بنود اتفاقية غرناطة، وفي نفس

---

1 ـ محمد لبيب البتنوني، رحلة **الأندلسيين**، مكتبة الثقافة الدينية بور سعيد 1998م ص151

2 ـ عبد الحكيم الدنون، آفاق **غرناطة** بحث في التاريخ السياسي والحضاري ط1، دار المعرفة دمشق 1988م ص51.

3 ـ حسن الشطشاط ،**نهاية الوجود العربي في الأندلس** ،دار قباء للطباعة و النشر القاهرة ،ص62.

اليوم غادر أبو عبد الله الصغير قصره في موكب حزين ومعه أهله نحو منطقة البشرات وقف على هضبة وألقى نظرة أخيرة على غرناطة فانهمر دمعه وأجهش باكيا فقالت له أمه عائشة "أبك كالنساء ملكا مضاعا لم تحافظ عليه كالرجال " [1]، ثم رحل الى فاس وتوفي سنة 940 هـ 1535 م والبقاء لله.

وبعد هذا السقوط تواصلت مأساة المسلمين في الأندلس حيث نقض النصارى شروط معاهدة التسليم ومنعوا المسلمين من كل شيء حتى الحديث بالعربية وأحرقوا الكتب العربية، ثم ظهرت محاكم التفتيش التي كان هدفها تنصير المسلمين بإشراف الكنيسة هذه المأساة دفعت جموع المسلمين الى الهجرة نحو البلاد الإسلامية في المغرب والمشرق واخفى من بقي اسلامه وأظهر تنصره، وهكذا انطفأ الإيمان والإسلام في الأندلس وحلت النواقيس والصلبان في صوامع المساجد بدل الأذان.

وقد نظم الشاعر أبو البقاء الرندي قصيدة نونية في رثاء الأندلس عبر فيها بصدق عن المأساة التي لحقت بالأندلس مطلعها

لكَل شيَءٍ إذا ما زاد نقصانُ فلاً يغتر بطيب العيَشِ إنسأُن

هي الجزيرةُ أمرُ لاً عَزاء لُه هوَى لهُ أحد وأنهدً ثهلانُ

أصابتْها العينُ في الإسلامِ حتى خَلت منه أقطَار وبلدانُ

فَسأل بلنسيَة ما شأنُ مرسة وأينَ شاطبةُ أم أين جيانُ

وأينً قرطبة دار العلومِ فَكم من عالمٍ قد سما فيها لهُ شانُ

حتى المساجدَ قد سارت كنائسَ ما فيهنَ إلا نواقيس وصلبانُ[1]

---

1 ـ جمال يحياوي، سقوط غرناطة ومأساة الأندلسيين، دار هومة للطباعة والنشر الجزائر 2011 م، ص 38.

لقد ساهمت عوامل كثيرة في سقوط آخر معقل للمسلمين في الأندلس فمنها ما تعلق بسياسة حكام غرناطة وتخليهم عن الأمور الجدية وميلهم الى الترف والشهوات، أو ما تعلق بالظروف المحيطة والمتمثلة في تفكك بلاد المغرب الى دويلات متصارعة فيما بينها وبالمقابل تحالفت الممالك النصرانية خاصة مملكة قشتالة وأراغون، هذه العوامل عجلت بسقوط الأندلس في يد النصارى وتعرض المسلمون الى أنواع شتى من التعذيب والتنصير، وانتهت المرحلة الإسلامية في الأندلس والتي عرفت خلالها ازدهارا حضاريا كبيرا.

1 ـ ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تح، حسان عباس، دار الثقافة بيروت 1997 م ص112

BROUILLON سي عبد القادر